وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد - كلية العلوم الإسلامية

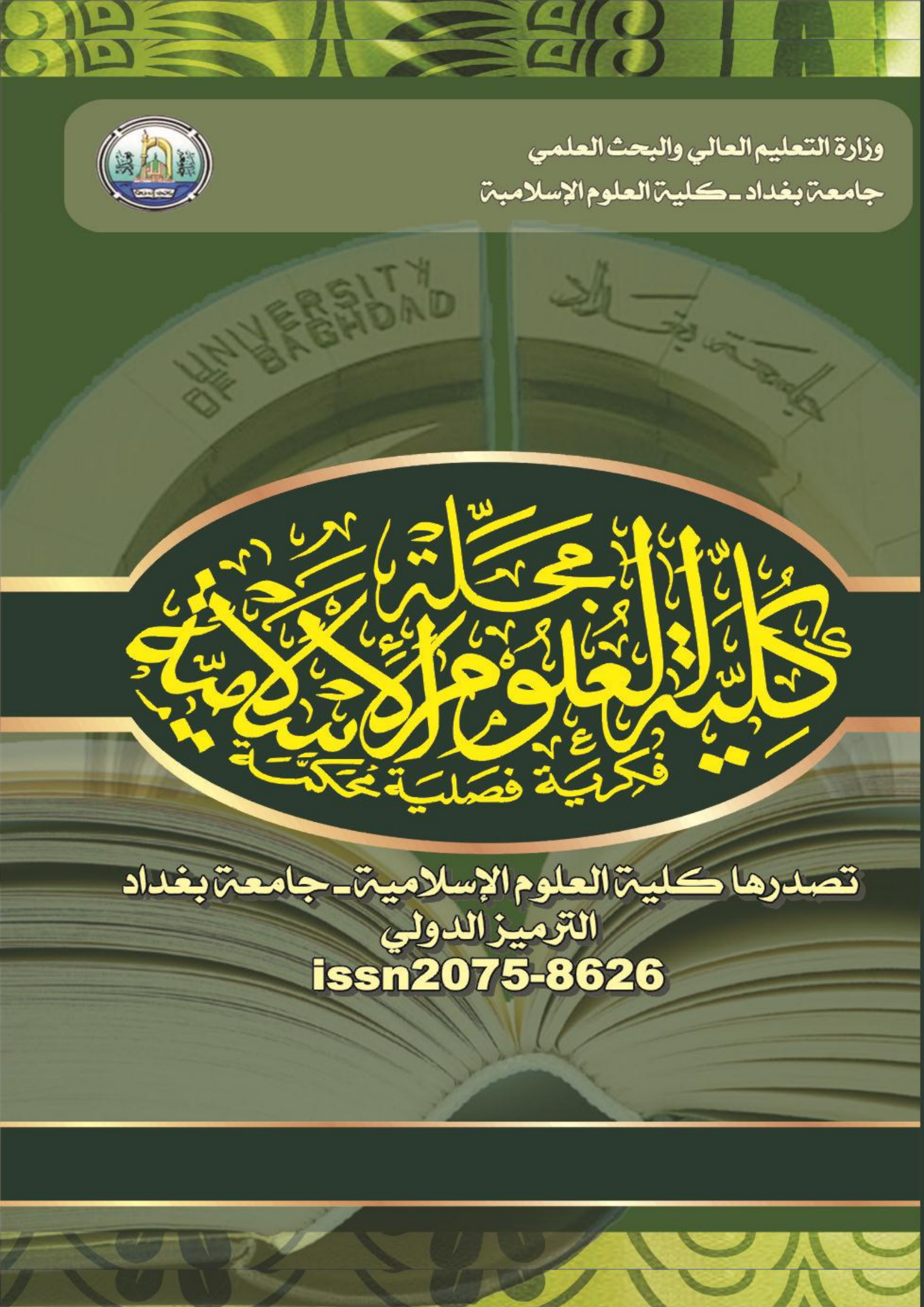

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية فصلية محكمة

تصدرها كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد
الترميز الدولي
issn2075-8626

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية –فصلية - محكمه

تصدرها

كلية العلوم الإسلامية

جامعة بغداد

العدد:١٦

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦

محتويات العدد ١٦ لعام ٢٠٠٨

اسم البحث	اسم البحث	رقم الصفحة
تحقيق تحفة الاحباب للمسترشدين من الطلاب	أ.م.د. داود سلمان الدليمي د.عبد الرحمن العيساوي	١
القضاء في بيت المقدس في العصر الاسلامي	د. رعد شمس الدين الكيلاني	١٥٣
قياس الشبه عند الاصوليين ونماذج من تطبيقاته الفقهية	د. ضياء حسين الزوبعي	١٩٢
البرهان واستدلالاته في القران	عبد القادر عبد الحميد القيسي	٢٥٩
الراوندية فروعها واهدافها	د. عماش فرحان المحمدي	٣١٨
نفقة الزوجة في الشريعة والقانون	د.محمود بندر علي	٣٦٩
اسم الجمع في العربية دراسة نحوية	د.محمد خالد رحال	٤٠٨
الاظهار والاضمار وتفاعل نظم الخطاب القراني دراسة اسلوبية	د. عدنان جاسم محمد الجميلي	٤٧٤
المجاز في تفسير البحر المديد لابن عجيبة	مثنى نعيم حمادي	٥٢٣

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية –فصلية - محكمه

تصدرها

كلية العلوم الإسلامية

جامعة بغداد

العدد:١٣

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦

القضاء في بيت المقدس في العصر الإسلامي

د. رعد شمس الدين الكيلاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:ـ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على معلم الإنسانية الخير وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد:

فإن الله خلق الإنسان بطبيعة اجتماعية أي إن الإنسان لا يمكن أن يعيش وحيداً بل لابد من مجتمع يرتبط به. وعندما خاطب الله آدم أول خلقه خاطبه بخطاب المثنى له ولزوجته قال تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**﴾ "البقرة: ٣٥"، وبذلك كان الخطاب الإلهي لأول تجربة إنسانية على الأرض يستوعب علاقة اجتماعية وهي (الأسرة) الزوج والزوجة. ولما كان الإنسان يحتاج إلى الاجتماع كما قال ابن خلدون: (إن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم (الإنسان مدني بالطبع))[1]. وكما هو معلوم أن مع الاجتماع تنشأ العلاقات من محبة

(١) مقدمة ابن خلدون ، شرح د. علي عبد الواحد وافي ، ج١ ص٢٧٢.

وكره وتعاون وتصارع فينشأ بذلك الواقع الاجتماعي للمجتمع البشري وأن هذا التفاوت في العلاقات الاجتماعية يولِّد الحاجة إلى قوة تضبط هذه التناقضات المتولدة من النفس البشرية التي تملك الاستعداد لفعل الخير والشر ومن هنا نشأت فكرة القانون. فيوضح فقهاء القانون هذه الفكرة (بأن القانون وسيلة لتحقيق الانسجام الاجتماعي عن طريق كبح مشاعر الشر لدى الإنسان وانطلق بعضهم من فرضية الإنسان شرير بطبعه وأن أي تقدم اجتماعي لا يمكن تحقيقه دون وجود قانون العقوبات الزاجر.. ويرى هيوم: أنَّ المجتمع البشري لن يكون له وجود بدون القانون والحكومة والعقوبة ومن هنا فإن القانون ضرورة طبيعية للبشر)[1]. ويعرض القرآن الكريم قصة أول جريمة قتْل حدثت بين قابيل وهابيل وهي الحادثة التي عقب عليها القرآن الكريم وأكد بأن التشريع والجانب الأخلاقي يرتبطان ارتباطاً وثيقاً وإذا كان القانون صفة ملازمة للمجتمع الإنساني فإن القانون لا قيمة له بدون روح أخلاقية قال تعالى يعقب على الجريمة الأولى: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً...**﴾ "المائدة: ٣٢" . وبذلك يؤكد القرآن الكريم تلازم الضوابط القانونية مع القيم للمجتمع البشري منذ بدايته (وأن الاعتراف بأن نظاماً

(١) فكرة القانون ، دينيس لويد ، ترجمة سليم الصويص ، ص١٧-١٨.

من القواعد والقوانين ضروري حتى في أبسط أشكال المجتمع يبدو أمراً لا مفر منه) [١]. وتشير دراسات تطور القانون أن بدايات القانون كانت تأخذ صفة التحكيم لفض الخصومات وحل المنازعات. (ويبدو أن التحكيم قد عُرف في المراحل الأولى لتكوين الفكر القانوني عند الإنسان) [٢] والثابت أن الرسول ﷺ كان يحتكم إليه الناس قبل الإسلام فقد روي عن الربيع بن خثيم أنه قال: كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام. وفي روايات تاريخية يذكرها ابن سعد في طبقاته أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقضي فيما سبت العرب بعضها من بعض قبل الإسلام وقبل أن يبعث النبي ﷺ[٣]. وبعد الإسلام ونزول القرآن تطورت مفاهيم الضبط الاجتماعي القانونية بمقتضى الدستور القرآني والتطبيق النبوي لتعاليم الإسلام فجاءت الشريعة الإسلامية لتحقق ثلاثة أهداف إصلاحية أساسية وهي: تحرير العقل البشري من الخرافة عن طريق الإيمان بالله والعقيدة. وإصلاح الفرد نفسياً وخُلقياً عن طريق العبادات والتربية الإيمانية. وإصلاح المجتمع وتحقيق الأمن الاجتماعي والعدل بين الناس (ومن هذه الأهداف الثلاثة في الإسلام يتحدد معنى الشريعة الإسلامية ويتضح أنها تقوم على ثلاث دعائم: عقيدة عقلية،

(١) فكرة القانون ، م. س ، ص٢٩.

(٢) عقد التحكيم في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي ، د. قحطان الدوري ، ص٣٦-٤٦.

(٣) عقد التحكيم في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي ، د. قحطان الدوري ، ص٣٦-٤٦.

وعبادة روحية، ونظام قانوني قضائي. وهذا هو المعنى المراد عندما يقال: إن الإسلام دين ودولة) [١].

تعريف القضاء:

القضاء في اللغة يعني الحسم والقطع والانتهاء يقال: يقضي قضاء إذا حكم وحسم الأمر قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام عندما فسر الرؤيا لصاحبيه في السجن ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ "يوسف: ٤١".

أما تعريف القضاء في الاصطلاح الشرعي فيعرفه الفقهاء بتعاريف عدة منها (أنه فصل الخصومات والمنازعات – ومنها أنه الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام – وتعاريف أخرى – والتعريف المختار هو: الحكم بين الخصوم بالقانون الإسلامي بكيفية مخصوصة. وأريد بالكيفية المخصوصة: كيفية رفع الدعوى إلى القاضي والأساليب والضوابط التي يلتزم بها القاضي والخصوم في إجراء التقاضي والترافع أمام القاضي ووسائل الإثبات)[٢] وغيرها.

وباشر النبي ﷺ نفسه القضاء في المدينة لأن المسلمين مأمورون بالرجوع إليه عند الاختلاف أما في المناطق البعيدة خارج المدينة فقد ثبت أنه ﷺ أرسل بعض أصحابه إلى بعض الأمصار فقد بعث علي بن

(١) الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد ، مصطفى أحمد الزرقاء ، ج١ ص١١.

(٢) نظام القضاء في الإسلام ، د. عبد الكريم زيدان ، ص١٣.

أبي طالب ﷺ إلى اليمن قاضياً وبعث أيضاً معاذ بن جبل قاضياً إلى اليمن. وبعث عتاب بن أسيد قاضياً إلى مكة. وهذه المدن لم يكن غيرها في عهده عليه الصلاة والسلام لعدم وجود فتوحات أو تمصير للأمصار فاقتصر بعثه ﷺ للقضاء على المدن والحواضر الإسلامية الموجودة. أما القضاء في عهد أبي بكر ﷺ فقد تولاه عمر بن الخطاب ﷺ بتكليف من الخليفة الصديق. وقد هيأ الرسول ﷺ مجموعة من أصحابه للقضاء وشجعهم ودربهم على القضاء وقد ورد عن عقبة بن عامر الجهني قال: جاء خصمان إلى الرسول ﷺ فقال: اقضِ بينهما، قلت: أنت أولى بذلك قال: وإن كان، قلت: علام أقضي؟ قال: اقضِ، فإن أصبت فلك عشرة أجور وإن أخطأت فلك أجر واحد)[1]. (وكان ممن يستشار في القضاء ويؤخذ عنه الفقه في عهد الرسول ﷺ علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود)[2].

(١) المغني ، ابن قدامة ، ج٣ ص٣٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ت ٢٨٦هـ ، ج٢ ص عن التقاضي في التاريخ العربي الإسلامي ، ص٦٦.

القضاء في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وعندما توسعت الدولة ومصرت الأمصار وفي عهد عمر بن الخطاب تحديداً رأى أنه لابد من تعيين قضاة لمختلف الولايات ووضع دستوراً للقضاة يسترشدون به وتمثلت هذه الوصايا والتعليمات للقضاة في الوثيقة التي بعثها عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري والتي شرحها ابن القيم في كتابه (اعلام الموقعين عن رب العالمين) في مجلد كامل وهو المجلد الأول. (وكان أول من عرف بهذا اللقب – القاضي – هو سلمان بن ربيعة الباهلي فهو أول قاضٍ في الكوفة استقضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان شريح يتولى في المدينة مهمة التحكيم بين الناس قبل توليه القضاء للخليفة عمر رضي الله عنه وقد أوردت المصادر أسماء طائفة من القضاة الذين استقضاهم عمر رضي الله عنه في خلافته، ومنهم سلمان بن ربيعة على الكوفة وكعب بن سوار على البصرة وأبو هريرة على البحرين وأبو الدرداء على دمشق)[1]. وكان أمر القضاء في بداية عهده في دولة الراشدين يتداخل مع الإفتاء. فكان الناس في صدر الإسلام يفضون خلافاتهم بالتراضي بعد سؤال أهل العلم، وكان الفقهاء والمفتون والعلماء والقضاة يؤدون دوراً واحداً. وكان القاضي يجلس في المسجد الجامع للنظر في الخصومات وكان ذلك في بداية الأمر لأن وظيفة

(١) التقاضي في التاريخ العربي الإسلامي ، رسالة ماجستير ، عبد الرزاق الساعدي ، ص٦٦.

القضاء دينية وقد يجلس القاضي في بيته للنظر في القضايا. وقد يحدث أن يقوم القاضي بوظيفة أخرى مع القضاء فقد عهد بعض الخلفاء في العصر العباسي إلى بعض قضاتهم بقيادة الجيوش)[1]. والظاهر أن تعيين القضاة ليس في كل المدن وإنما كان في المدن المشهورة أو أن القاضي كانت حدود مسئوليته القضائية لمنطقة في أكثر من مدينة مثل الشام أو مصر أما المدن المهمة مثل مكة والمدينة والبصرة والكوفة فكان الخليفة يعين لها قاضياً لأهميتها ولربط المدن الصغيرة والقرى القريبة منها بها.

وقد حاول عمر رضي الله عنه أن يربط قرى ومدن العراق التي كانت خاضعة للفرس بالكوفة والبصرة وهما المدينتان اللتان أسسهما عمر بن الخطاب كمدن عسكرية للمحافظة على الجيش العربي من الاختلاط بالفرس. وكذلك الحال بالنسبة لدمشق فقد كانت المدينة الكبرى في الشام وقد ربطت بها المدن الباقية إدارياً وقضائياً. وكان المفتون يؤدون دوراً مهماً في المناطق التي لم يكن فيها قاضٍ، (ويختلف الإفتاء عن القضاء وإن كانا في حقيقتهما تبيين الحكم الشرعي في ، أن الإفتاء ليس فيه إلزام من المفتي في حين أن القضاء فيه إلزام المتقاضين بالحكم)[2].

(١) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، د. إبراهيم سلمان الكروي ، د. عبد التواب شرف الدين ، ص٧٠.

(٢) أدب الفتيا ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق د. محي هلال السرحان ، ص١٧.

استقلال القضاء في الإسلام:

حرص الإسلام على تحقيق العدل بين الناس قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ "النساء: ٥٨" والحكم بالعدل يقتضي عدم جواز التدخل في أعمال القاضي ليعطل العدل في الحكم وكما أن التدخل في شؤون القضاء محرم على الأشخاص الذين يملكون القوة أو وسائل التأثير الأخرى كذلك يحرم على القاضي الاستجابة للتأثير الخارجي أو التأثير الداخلي مثل الهوى والمصلحة قال ﷺ: (القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)[١]. ولذلك جاءت تعاليم الإسلام في القرآن والسنة تؤكد استقلال القاضي في حكمه وأن هذا الاستقلال واجب على القاضي ولا يحق له أن يتنازل عنه (فالقاضي عليه التزام شرعي هو أنه لا يجوز له تقليد غيره فيما يصدره من أحكام.. وهو ملزم شرعاً أن يبقى مستقلاً وحراً في إصداره الحكم حسب اجتهاده وهذا ما نريد بـ(استقلال القاضي) الذي قلنا إنه حق له وأن حقيقة هذا الحق هو الوجوب الشرعي على القاضي بالتمسك بهذا الاستقلال وعدم التفريط به)[٢]. ومن القواعد

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب القضاء .

(٢) نظام القضاء في الإسلام ، م.س ، ص٧٢، ٧٤.

الشرعية التي تؤصل استقلال القاضي هو عدم جواز نظر القاضي في قضية هو فيها مدعٍ أو مدعى عليه)[1]. وفي هذه القاعدة تأكيد على عزل القاضي عن التأثيرات التي تصرفه عن الحكم بالعدل، ولكن هذا الاستقلال في القضاء لا يمنع من إرشاد القاضي وتوجيهه من السلطان أو ولي الأمر وفي رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري قاضيه على البصرة والتي تعد من الوثائق القضائية العظيمة. في هذه الوثيقة توضيح للعلاقة بين ولي الأمر والقاضي وفيها بيان شافٍ لأهم القواعد القضائية وإرشادات تعين القاضي على أن يحكم بالعدل بين الناس. وقد جاء في هذه الوثيقة: (أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أُدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على المدعي واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. ومن ادعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمداً ينتهي إليه. فإن بينه أعطيته بحقه وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية فإن ذلك هو أبلغ في العذر وأجلى للعماء. ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق. فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. والمسلمون عدول بعضهم

(١) المصدر نفسه ، ص٧٢، ٧٤.

على بعض إلا مجرباً عليه شهادة زور أو مجلوداً في حد أو ظنِّيناً في ولاء أو قرابة فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان. ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايس الأمور عند ذلك، واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق، وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة أو الخصوم فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تزيَّن مما ليس في نفسه شانه الله فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً). قال ابن القيم بعد ذكر هذه الرسالة: وهذا كتاب جليل تلقاه العلماء بالقبول وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة، والحاكم والمفتي أحوج شيء إليه وإلى تأوله والتفقه فيه)[1].

القضاء في بيت المقدس :

أهمية بيت المقدس:

ارتبط بيت المقدس بذاكرة المسلمين منذ بداية الدعوة في مكة حيث كان المسلمون الأوائل يصلون وقبلتهم بيت المقدس، ولم يكن بيت المقدس مسجداً إسلامياً إنما كان بقية من المسجد الذي بناه سليمان حيث

(١) إعلام الموقعين ، ابن قيم الجوزية ، ج١ ص٧١-٧٢.

تم تدميره مرات عدة على أيدي الفرس والرومان. وكان الصراع بين الإمبراطوريتين سجالاً وفي كل مرة تديل إحداهما على الأخرى وسجل هذا الصراع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ "الروم: ٢-٤". وفي مكة كان المستضعفون من المسلمين يراقبون الصراع ويتعاطفون مع الروم لأنهم أهل كتاب والفرس عبدة النار. وبعد بضع سنين من انتصار الفرس استطاع هرقل أن يجمع الروم ويلتقي بالفرس في آخر معركة بينهما حيث أن الساحة قد هيأت لظهور المسلمين كأعظم قوة عالمية كتب لها أن تحطم الإمبراطوريتين وتنهي تداولهما السيطرة على أرض العرب وإلى الأبد. وكانت نتيجة المعركة الأخيرة لصالح الروم إذ تمت إزاحة الفرس من أرض بيت المقدس والشام. وفي هذه المدة من الزمن استطاع بنو إسرائيل أن يعيدوا بناء بقايا المسجد الذي بناه سليمان أو المسجد الذي جدد بناءه سليمان عليه السلام إذ إن المسجد كان قد بناه أول مرة إبراهيم عليه السلام. وتركت بقية المسجد خربة وسيطر الرهبان والقساوسة على الأماكن المقدسة وكنيسة القيامة وبقي الرهبان يخدمون في البناية التي أعيد إعمارها والبنايات الأخرى من الكنائس والبيع وتركت الأماكن الأخرى خرائب وكناسات إلى الصخرة وحواليها والتي تشكل حدود المسجد الأقصى وساحاته.

وتذكر المصادر التاريخية أنه (في عام ٦١٤م قام الملك كسرى بجمع جيشه واتجه إلى إيلياء (بيت المقدس) فهدم منازلها ودك أسوارها وأحرق كنائسها وهدم الباقي إذ إنه لم يبق كنيسة إلا وهدمها أو أحرقها بما فيها كنيسة القيامة، وفي عام ٦٢٥م-٦٢٧م انتصر هرقل القائد البيزنطي على الفرس وأعاد إيلياء كما كانت وعلى عهده أُسري بالنبي محمد ﷺ إلى بيت المقدس)[١].

كان توجه المسلمين إلى بيت المقدس في الصلاة يؤكد لهم أهمية بيت المقدس في حياة المسلمين ثم جاء الإسراء والمعراج ليحقق لهم هذه الأهمية ويطبع في ذاكرتهم التطلع إلى الوصول إلى هذا المكان الطاهر الذي شرفه الله وعظمه وبارك فيه. وفي العام العاشر من بعثته ﷺ تقريباً أي قبل أكثر من سنة من هجرته إلى المدينة المنورة أسري به من مكة إلى بيت المقدس والقصة بتفاصيلها رواها البخاري ومسلم وموجودة في كتب السنن والسيرة. (وفيها أنه ﷺ أُتي بالبراق وهو دابة فوق حمار ودون بغل بضع حافره عند منتهى طرفه وفيها أنه ﷺ دخل المسجد الأقصى فصلى فيه ركعتين ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاختار ﷺ اللبن فقال جبريل: اخترت الفطرة. وفيها أنه عرج به إلى السماء الأولى فالثانية حتى السابعة حتى ذُهب به إلى سدرة المنتهى

(١) القدس الشامخة عبر التاريخ ، محمد هاشم غوشة ، ص٣٧.

وأوحى الله إليه عندئذ ما أوحى وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين وهي في أصلها خمسون صلاة في اليوم والليلة... وفي صبيحة اليوم التالي حدث الرسول ﷺ الناس بما شاهد وطفق المشركون يضحكون من الخبر وتحداه بعضهم أن يصف لهم بيت المقدس.. وروى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه)[1].

وكانت صلاة الرسول ﷺ في مسجد داود ﷺ وهو المسجد الباقي من المسجد الأقصى وكان بناية صغيرة لجدران معادة وحولها خرائب المسجد الأقصى والصخرة مغطاة بالأزبال والأتربة وقد ربط رسول الله ﷺ البراق عند الصخرة وعرج به ﷺ منها إلى السماوات العلا. وقد بشر رسول الله ﷺ أصحابه بفتح بيت المقدس والشام فقد روي أن النبي ﷺ قال للصحابي شداد بن أوس: (إلا أن الشام ستفتح وبيت المقدس سيفتح وتكون أنت وولدك أئمة بها إن شاء الله)[2].

(١) فقه السيرة ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، ص١١٥.

(٢) القدس الشامخة ، م.س ، يأخذ عن فضائل بيت المقدس للدكتور محمد إبراهيم ، ص٣٧.

فتح بيت المقدس:

في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ تعاظمت دولة الإسلام وانساح المسلمون إلى مشارق الأرض ومغاربها يدكون عروش الطغاة ويحررون المستضعفين من ذل العبودية لغير الله. فحطم الله على يد جيوش الإسلام إمبراطورية الفرس ومزقت شر ممزق في معارك القادسية ونهاوند وغيرها من المعارك، وفي بلاد الشام تداعت جيوش الروم أمام جحافل المجاهدين العرب حملة الرسالة ومحرري الإنسانية من سطوة المادة والخرافة. ولم يصمد جيش أمام جيوش المسلمين التي كانت تحت قيادة أصحاب الرسول ﷺ الذين شرفهم الله بحمل الرسالة ونورها الوضاء. بعد رحيل المصطفى ﷺ إلى الرفيق الأعلى انطلق هؤلاء الأبطال على هديه وسنته يحملون راية الإسلام يحررون بها بلاد العرب والإنسانية جمعاء من سطوة الظلم الذي كان يطبق على مشارق الأرض ومغاربها، وبينما كان سعد بن أبي وقاص يتقدم نحو الشرق ليحرر العراق وما وراء النهر ومعه أبطال المسلمين، كان أبو عبيدة يتقدم نحو المغرب لتحرير بلاد الشام ويجهز على بقايا الرومان وكان بيت المقدس مركز الخطة الإسلامية وهدفها الأعظم لتحريره وتعظيمه،

وعندما دخلت سنة خمس عشرة للهجرة في عهد عمر ﷺ روى الطبري أحداث هذه السنة فذكر أن سعد بن أبي وقاص مصَّر فيها الكوفة وفيها فتحت حمص وسقطت قيسارية وعندها رحل هرقل من الشام إلى

القسطنطينية، وذكر الطبري أن هرقل لما وصل من شمشاط داخلاً الروم التفت إلى سورية فقال: قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم، وليته لم يولد! ومضى حتى نزل القسطنطينية[١]. وفي هذه السنة فتحت أيضاً بيسان وحدثت بين المسلمين والروم وقعة أجنادين وكان على المسلمين عمرو بن العاص وعلى الروم القائد أرطبون (وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً.. وكتب عمرو إلى عمر بالخبر فلما جاءه كتاب عمرو قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج)[٢]. وانتصر في المعركة المسلمون انتصاراً عظيماً وذكر الطبري أن المسلمين قاتلوا في أجنادين قتالاً شديداً كقتال اليرموك وانهزم أرطبون وأوى إلى إيليا – بيت المقدس – وأرسل عمرو بن العاص رسولاً إلى أرطبون ومعه كتاب يدعوه إلى الاستسلام وقد كان أرطبون قد أرسل إلى عمرو كتاباً يذكر له فيه: (إنك صديقي ونظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتح في فلسطين شيئاً بعد أجنادين فارجع ولا تغر[٣] فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة)[٤]. وعندما أرسل عمرو رسوله وكان يعرف اللغة الرومية

(١) انظر: الطبري ، تاريخ الطبري ، ج٣ ص٦٠٣.

(٢) انظر: الطبري ، م.س ، ج٣ ص٦٠٥.

(٣) أي لا يصيبك الغرور.

(٤) انظر: الطبري ، م.س ، ج٣ ص٦٠٦-٦٠٧.

أوصاه أن يتنكر ويستمع إلى ما يقول حتى يخبره، ولما وصل الرسول ودفع إلى أرطبون كتاب عمرو بن العاص ضحك أرطبون وقال بأنه أي عمرو ليس صاحبها فقال له أصحابه: من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ قال صاحبها رجل اسمه (عمر) ثلاثة أحرف فرجع الرسول إلى عمرو فعرف أن عمر رضي الله عنه هو المقصود بأنه هو الذي يفتح بيت المقدس. فكتب إلى عمر يستمده ويقول: إني أعالج حرباً كئوداً صدوماً وبلاداً ادخرت لك فرأيك؟ عندها خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المدينة قاصداً بيت المقدس ونزل أول ما نزل في بلاد الشام في منطقة اسمها الجابية وروى الطبري عن سالم بن عبد الله بن عمر أنه قال: لما قدم عمر رحمه الله الجابية قال له رجل من يهود: يا أمير المؤمنين لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء)[1]. وفي ضحى العشرين من ربيع الأول عام ١٥هـ الموافق ٢ أيار من عام ٦٣٦م تقدم عمر بن الخطاب على بعيره الأحمر وعلى رأسه عباءة نزل على طور زيتا كبَّر عمر تكبيرة ارتجت لها جنبات الوجود عندما رأى بيت المقدس وكبَّر بعده المسلمون من كل الجهات ومنذ ذلك التاريخ سمي طور زيتا بجبل المكبر. وخرج أبو عبيدة ومعه أمراء الجيش لاستقبال الخليفة ولما تعانقا أكب أبو عبيدة على يد عمر ليقبلها فهوى عمر الفاروق لتقبيل رجله لأنه أمير الجهاد فلما كف الأول كف الثاني وتقدم عمر وأبو عبيدة نحو سور إيلياء حيث يقف

(١) انظر: الطبري ، م.س ، ج٣ ص٦٠٦-٦٠٧.

بطريرك البيزنطيين صفرو نيوس الدمشقي وعليه المسوح وبين يديه الصليب الذي لا يخرجونه إلا في عيدهم ومعه الأساقفة والرهبان فقال أبو عبيدة للبطريرك: هذا أمير المؤمنين عمر ليس عليه أمير[1] قد أتى. فخرجوا إليه وعقدوا معه الأمان. ففتحت الأبواب ودخل عمر والأمراء إيلياء وطلب البطريرك مجموعة مطالب من عمر منها عدم مساكنة اليهود إليهم في المدينة جزاء خيانتهم المتلاحقة وإفسادهم المستمر والذي كانت آخر حلقاته انحياز خمسة وعشرين ألف يهودي إلى الجيش الفارسي الغازي الذي داهم القدس بالتعاون مع اليهود عام ٦١٤م وقتل من أهلها أكثر من ستة وخمسين ألف مسيحي واستجاب عمر رضي الله عنه لمطالبهم ومنحهم عهدة نظمت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين على أساس من العدل والإحسان وسميت بالعهدة العمرية. وكان المسلمون يحاصرون بيت المقدس أكثر من أربعة أشهر حتى قبلوا بفتحها لعمر بن الخطاب. الذي رحل من المدينة المنورة لتسلم مفاتيح المدينة المقدسة ومكث عمر في المدينة عشرة أيام تفقد أحوالها وأصلح شأنها وحرص على معاملة أهلها بالحسنى وأشرف على إزالة الأذى من المسجد الأقصى وبنى مصلى في صدر المكان الذي يشكل المساحة الكاملة للمسجد الأقصى وكان مسجداً من الخشب وسعف النخيل وكان مع عمر آلاف من الصحابة منهم قادة الجيوش شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي

(١) أي ليس فوقه رتبة في المسلمين.

سفيان وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وبلال الذي صعد السور وأذن لأول مرة منذ وفاة النبي ﷺ فبكى المسلمون لسماع صوته وكان أطولهم بكاء معاذ بن جبل وأبو عبيدة قائد الجيوش التي حاصرت القدس حوالي أربعة أشهر في شتاء ٦٣٥-٦٣٦م[١].

العهدة العمرية أول وثيقة قضائية في بيت المقدس :

تعد الوثيقة العمرية التي صالح عليها أهل إيلياء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أعظم الوثائق القضائية في العدل والتسامح في التاريخ الإنساني، ودلت موادها القانونية على عظمة الدين الإسلامي وعلى عمق الفهم العمري وفقهه الدقيق لتعاليم الإسلام ومنذ أن دخل أمير المؤمنين بيت المقدس وزار كنيسة القيامة عكس في تعامله سماحة الإسلام وأكد من خلال الإسلام سلوكه بأن هدف الإسلام تحرير الإنسانية من الظلم والاضطهاد الذي يمارسه الطواغيت والأئمة المضلون. وعندما أدركت عمر الصلاة وهو في الكنيسة خرج وصلى في الخارج قال البطريرك متعجباً: لماذا لم تُصَلِّ في مكانك أوليس المكان بطاهر؟ فأجاب عمر: بلى ولكن أخشى من يوم يأتي فيه المسلمون ويطالبون بأخذ

(١) انظر: وقائع فلسطينية ، الفتح العمري لبيت المقدس ، أ. سعود أبو محفوظ ، إصدار اللجنة الوطنية الأردنية للدفاع عن القدس ، ص٣٩.

الكنيسة بحجة صلاتي فيها وأنتم لها أحق وأولى. (وتعد العهدة العمرية أساساً استراتيجياً لعلاقة المواطنين المسلمين والمسيحيين وتعايشهم في القدس الذي دام على مدى قرون طويلة وأن المسلمين والمسيحيين في القدس وفي أنحاء فلسطين كافة هم شعب عربي والعهدة العمرية تعبير عن الامتداد التاريخي للثقافة والتراث العربيين العريقين اللذين يقومان على الدفاع عن مبادئ الحق والعدل والسلام وهو يتجلى في مدينة القدس التي تشكل امتداداً لرسالة العرب والمسلمين ومساهمتهم المتميزة في إغناء الحضارة الإنسانية)[١]. وقد ميز أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل إيلياء بكتاب خاص ويذكر الطبري عن خالد وعبادة قالا: صالح عمر أهل إيلياء بالجابية وكتب لهم فيها الصلح لكل كورة كتاباً واحداً ماخلا أهل إيلياء: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت[٢] فمن

(١) المادة الثانية من ميثاق الدفاع عن القدس الصادر عن المؤتمر الشعبي للدفاع عن القدس ، ٢١ آب ١٩٩٧م ، عمان ، الأردن.

(٢) يعني المحاربين من الروم واللصوت أي قطاع الطرق كاللصوص.

خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعمرو ابن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، وكتب معاوية بن أبي سفيان وشهد معهم وأما سائر كتبهم فعلى كتاب لد)[1]. أي إنَّ كتب الصلح لباقي المدن كانت على غرار كتاب الصلح لمدينة لد. وهذا يعني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ميز بيت المقدس في كتاب الصلح وأفرد للمدينة المقدسة وثيقة عهد خاصة، فيها استثناءات مراعاة لوضعها الديني بين المسلمين والمسيحيين. وفي هذه الوثيقة القانونية وهي سابقة حضارية أوجدها الإسلام بتعاليمه وسماحته تؤكد هذه الوثيقة التي تمثل في القوانين المعاصرة وثيقة منح الجنسية الإسلامية والتعامل مع هؤلاء المعاهدين بموجب عقد الذمة على أنهم رعايا للدولة الإسلامية لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وأعطت هذه

(١) الطبري ، ج٣ ص٦٠٩.

الوثيقة التي يوقعها عادة أمير المؤمنين الذي يمثل أعلى سلطة في دولة الإسلام أعطت هؤلاء حقوقاً وامتيازات وبالمقابل ألزمتهم بالتزامات. ولعل أهم الحقوق التي حصلوا عليها هي:

١. حماية الأنفس والأموال من الاعتداء الخارجي والظلم الداخلي

وقد بدأت الوثيقة بتعهد أمير المؤمنين بحماية الأنفس والأموال وإعطائهم الأمان على ذلك ولكي يحقق لهم هذا الالتزام لابد أن يتعاونوا مع الدولة الإسلامية بإخراج الروم الذين ولائهم إلى دولتهم ومن الممكن أن يقوموا بأعمال تخريبية لإرهاب الناس وإثارة الفتن وكذلك عليهم أن يخرجوا المخربين والخارجين على القوانين الاجتماعية من قطاع الطرق والأشقياء وأعطى لهؤلاء الأصناف الأمان بالخروج من المدينة المقدسة والالتحاق بالروم ومن أراد منهم الإقامة في المدينة فله ما يشاء على شرط الالتزام بشروط العهد من أداء الجزية. وخيرت الوثيقة أهل إيلياء كذلك بين الخروج والإقامة وأعطت لهم الأمان والحرية في الاختيار. وحماية الأنفس والأموال لأهل الذمة واجب تقوم به الدولة الإسلامية والمجتمع المسلم استجابة لتوجيهات النبوية التي حذرت من ظلم المعاهدين وشددت على من يرتكب في حقهم جريمة أو ظلماً فقد قال ﷺ: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً). وبهذا أجمع فقهاء الإسلام على أن قتل الذمي كبيرة من كبائر المحرمات بهذا الوعيد في الحديث.. وذهب كثير من الفقهاء إلى

أن المسلم يقتل بالذمي لعموم النصوص الموجبة للقصاص من الكتاب والسنة. ولاستوائهما في عصمة الدم المؤبدة. ولما روي أن النبي ﷺ قتل مسلماً بمعاهد، وقال: (أنا أكرم من وفى بذمته) وفي رواية عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال: إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا وأموالهم كأموالنا. وقال الفقهاء: لهذا يقطع المسلم بسرقة مال الذمي مع أن أمر المال أهون من النفس.. وكما حمى الإسلام أنفسهم من القتل حمى أبدانهم من الضرب والتعذيب فلا يجوز إلحاق الأذى بأجسامهم حتى لو امتنعوا عن تسديد التزامهم بدفع الجزية ولم يجز الفقهاء في أمر الذميين المانعين أكثر من الحبس تأديباً لهم بدون أن يصحب الحبس أي تعذيب وبلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموالهم أنه يحترم ما يعدونه حسب دينهم مالاً وإن لم يكن مالاً في نظر المسلمين فالخمر والخنزير إذا ملكهما غير المسلم فهما مالان عنده فمن أتلفهما على الذمي غرم قيمتهما.. ومن حرص الإسلام على حماية ورعاية أهل الذمة يذكر القرافي الفقيه المالكي في كتابه الفروق: إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا (حمايتنا) وذمتنا وذمة الله تعالى وذمة رسول الله ﷺ ودين الإسلام فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام)[1].

(١) انظر: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، د. يوسف القرضاوي ، ص١٣-١٥.

٢. حرية العقيدة والتدين :

لقد حرر الإسلام الإنسان من الخوف والخرافة وخلى بينه وبين نفسه وعقله لكي يختار عقيدته ودينه فقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ "البقرة: ٢٥٦" قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية: (أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بيِّن واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه)(١) ولهذا لم يعرف التاريخ شعباً مسلماً أو دولة مسلمة حاولوا إجبار أهل الذمة على الدخول في الإسلام وقد أقر بذلك المؤرخون الغربيون أنفسهم. وفي العهدة العمرية نص على حريتهم الدينية وحرمة معابدهم وشعائرهم فقد أعطاهم الأمان لكنائسهم وصلبانهم بأن لا تسكن ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا يكرهون على دينهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وهو الشرط الذي زاده عمر رضي الله عنه استجابة لطلب صفرو نيوس والرهبان الذي طالبوا بإخراج اليهود من المدينة المقدسة لغدرهم، ولذلك كان عهد أهل إيلياء خاصاً بهذا الشرط الذي تميز به عن عهود باقي المدن. وقد تضمنت جميع العهود التي أبرمها المسلمون مع أهل الذمة حريتهم الدينية والسماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية ففي عهد خالد بن الوليد لأهل عانات (.. لهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا من ليل أو نهار

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ، ج١ .

إلا في أوقات الصلاة. وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم) وبناء على هذه المبادئ من السماحة والحرية أجاز الفقهاء لأهل الذمة إنشاء الكنائس والبيع وغيرها من المعابد. وبذلك يقول روبرتسون: إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى)[1].

قضاة بيت المقدس:

عندما فتح عمر رضي الله عنه بيت المقدس وكتب لأهلها عهداً (الوثيقة العمرية) كان هذا العهد بداية لعهد جديد لبيت المقدس وكانت الزيارة العمرية للمدينة المقدسة تأكيداً لأهمية المدينة عند المسلمين فقد أمر عمر رضي الله عنه أن تبقى أراضي بيت المقدس وأطرافها أوقافاً أميرية للأمة على مر العصور وكر الدهور وقسَّم الثغور على قادته ليقيموا العدل فيها ولتكون قواعد انطلاق لنشر الدعوة الجديدة في ربوع الشام وأرض النيل. ومكث عمر في بيت المقدس عشرة أيام تفقد أحوالها وأصلح شأنها وحرص على معاملة أهلها بالحسنى وزار بعد بيت المقدس البلاد المفتوحة في الشام وعاد إلى القدس ليحرم منها حاجاً إلى مكة المكرمة اتباعاً لتوجيهات النبي ﷺ إذ روت أم سلمة (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ

(١) انظر: القرضاوي ، م.س ، ص٢١.

أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من أَهَلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أو (وجبت له الجنة) شك عبد الله راوي الحديث أيتهما قال »[١] . وقد استمرت رحلة أمير المؤمنين في تفقد بلاد الشام والمدن المفتوحة فيها ثمانية شهور وشهد الفتح مع عمر آلاف الصحابة[٢]. وكانت هذه الرحلة تمثل قيادة ميدانية مارسها أمير المؤمنين مع قادة جيشه يوجههم ويبرم العهود لأهل الذمة ويشرف على إدارة البلاد المفتوحة وكان أمراء الجند الذين يعينهم عمر رضي الله عنه يمارسون القضاء وإدارة المدن وقيادة الجند ويذكر السمناني بخصوص قضاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذين قاموا له بمهمة القضاء في الحواضر والمدن بأنهم (كثير لاتساع البلاد وانتشار الدعوة وذكر كل من ولي فلا يمكن لأنه يحتاج إلى كتاب أكبر من هذا الكتاب غير أن منهم علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت رضي الله عنهم)[٣].

وما ذكره السمناني يتعارض مع رواية تذكر عن مالك بن أنس أنه روى عن ابن شهاب الزهري: أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكن لهما قاض.

(١) رواه أبو داود ، كتاب المناسك ، ج٢ ص١٤٨، رقم الحديث ١٧٤١.

(٢) انظر: الفتح العمري لبيت المقدس ، سعود أبو محفوظ ، وقائع فلسطينية ، ص٣٩.

(٣) انظر: روضة القضاة وطريق النجاة ، لأبي القاسم السمناني ت ٤٩٩هـ ، ط٣ ص١٤٨١ ، تحقيق د. صلاح الدين الناهي.

وسبب هذا الاضطراب في الروايات أن القضاء يومئذ لم يكن وظيفة مستقلة ولا خطة متميزة من وظائف الدولة الإسلامية وخططها وأنه بموجب أعراف التنظيم الحربي لجيوش الفتح في ذلك العهد كان أمراء الجيوش يضطلعون بالحكم في المنازعات الشخصية بين المجاهدين فكان كل أمير من أمراء جيوش الفتح قائداً وقاضياً وحاكماً على المدينة. والظاهر أن الخلفاء عينوا في الأقاليم المفتوحة قضاة ولكن خطة القضاء لم تكن مستقلة يومئذ فكان القاضي يضطلع بمهمة تعليم المسلمين في المعسكرات الجديدة (الأمصار) شؤون الدين والقضاء في المنازعات كما كان التحكيم الاختياري بين أفراد القبائل يقوم بقسط من مهمة القضاء. أما رواية مالك آنفة الذكر فيمكن حملها على أنه لم يكن لهما في المدينة قاض يكفيهم النظر في المنازعات لأن الخلفاء كانوا يضطلعون بذلك بأنفسهم كما كان التحكيم يحسم كثيراً من المنازعات اليسيرة[1].

وكان القضاة المعينون في المدن الكبيرة يقضون في قضايا القرى والمدن المجاورة التي لم يكن فيها قضاة. ولو راجعنا كتب التاريخ وبحثنا عن القضاة الذين مارسوا القضاء في عهد الخلفاء الراشدين لوجدنا أن مهمة القضاء كان يؤديها العمال الذين يبعثهم الخليفة إلى الأمصار. وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه يذكر السمناني (أن عمر بن الخطاب كان القاضي

(١) انظر: روضة القضاة وطريق النجاة ، م.س ، هامش المحقق ، ج٣ ص١٤٨٢.

بالمدينة[1] في عهد أبي بكر)[2]. وعلى هذا الأساس كان الذي يقوم بمهمة القضاء في مكة على عهد أبي بكر رضي الله عنه عاملها عتاب بن أسيد وفي بلاد الشام كان أبو عبيدة وهو قائد الجيوش الإسلامية هناك ولذلك كان أبو عبيدة أول من مارس القضاء في بلاد الشام بالإضافة إلى مهمته العسكرية في قيادة الجيوش الإسلامية في فتوح الشام. ويذكر السمناني في روضة القضاة أن أبا عبيدة تولى الحراسة والراجح أنه تولى الخراصة أي خرص الأموال وجبايتها من أهل الذمة وهي مهمة إدارية مالية وقضائية ويذكر محقق الروضة رواية الطبري بهذا الخصوص والتي يمكن تصحيح عبارة السمناني بموجبها فقد جاء في الطبري: ولما ولي أبو بكر قال أبو عبيدة: أنا أكفيك المال، يعني الجزاء أي جمع الجزية، وبعد أبي عبيدة خصص عمر بن الخطاب عمرو بن العاص وأمره وبعثه نحو فلسطين كما ذكرنا سابقاً وجمع عمرو بن العاص بين قيادة الجيوش وإدارة أمر الأمصار والقضاء. ويقوم قادة الجيش والعمال بالقضاء والحكم بين المسلمين والجند وبين أهل الذمة إذا تخاصموا ورفعوا دعواهم إلى عامل المسلمين أو قائد الجيش الإسلامي عندهم للحكم في خصومتهم وحل مشاكلهم ويجب على القاضي أن يحكم بينهم

(١) وفي الطبري ج٣ ص٤٣٦ قال عمر أنا أكفيك القضاء ويذكر المسعودي كذلك في التنبيه والإشراف ص٢٤.

(٢) انظر: روضة القضاة / م س ، ج٣ ص١٤٧٤ وما بعدها.

إذا رفعوا دعاواهم لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾ ولأنهم من أهل دار الإسلام ولهم مالنا وعليهم ما علينا والقانون الواجب تطبيقه في قضاياهم هو الشريعة الإسلامية لقوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ "المائدة: ٤٨" والفقهاء متفقون على أن القانون الواجب تطبيقه على قضايا غير المسلمين هو القانون الإسلامي أي أحكام الشريعة إلا في استثناءات قليلة وأن هذه الاستثناءات جاءت مقررة في الشريعة الإسلامية وأكثر المذاهب توسعاً في الاستثناءات هو المذهب الحنفي وأن أبا حنيفة يأخذ بحكم شرائع غير المسلمين من مسائل النكاح ونحوها اتباعاً لأمر الشريعة القاضي بأن نتركهم وما يدينون فيكون الحكم بغير شريعة الإسلام في هذه المسائل حكماً بالشريعة الإسلامية نفسها ولا غضاضة في ذلك[1]، وكل ذلك إذا طلب أهل الذمة أن يحكم بينهم بمقتضى شريعتهم في هذه المسائل أما إذا رضوا بحكم الإسلام فيحكم بينهم بشريعته.

وعلى هذا الأساس فإن القاعدة عند جميع فقهاء الإسلام هي وجوب الحكم على غير المسلمين بأحكام الشريعة الإسلامية لا غيرها. أما الأحكام التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية فقد عالجها الفقهاء بوضع قواعد موضوعية مستمدة من الشريعة الإسلامية تحكم هذه القضايا (وإذا

(١) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين في بلاد الإسلام ، د. عبد الكريم زيدان ، ص٥٩١.

كان في هذه القضايا عنصر ديني تلزم مراعاته فإن الشريعة الإسلامية تضع الحكم المناسب مراعية اعتقادهم الديني إلى الحد الذي تراه واجب الرعاية)[1]. ومما تقدم نستطيع القول إن أول قاضي على الشام هو أبو عبيدة بن الجراح القائد العام لجيوش الفتح الإسلامي في بلاد الشام وهو الذي دخل على رأس الجند مع الخليفة عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس وشهد على العهدة العمرية التي أعطاها أمير المؤمنين لأهل إيلياء وثاني قاضٍ هو عمرو بن العاص حين استعمله عمر بن الخطاب على جيش المسلمين في فتح قيسارية وفي وقعة أجنادين والتحرك نحو بيت المقدس وشهد كذلك على الوثيقة العمرية مع بقية قادة الجيش الإسلامي. ويذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن عمر بن الخطاب ولى عمرو بن العاص فلسطين والأردن[2] ومع هذين القائدين أسند عمر بن الخطاب مهمة القضاء بصورة مستقلة إلى بعض الصحابة ومن هؤلاء:

١. **أبو الدرداء:** ذكرت المصادر التاريخية أن عهد عمر بن الخطاب شهد ظهور منصب القاضي في الدولة الإسلامية وكان أول من تولى القضاء في عهده سلمان بن ربيعة الباهلي فهو أول من عرف بهذا اللقب وهو أول قاض بالكوفة ثم استقضى الخليفة بعده شريحاً وبعث

(١) انظر: أحكام الذميين ، م.س ، ص٥٩٤.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ت ٢٠٤هـ ، تحقيق د. أكرم العمري ، ص١٢٩.

أبا هريرة قاضياً على البحرين وأبا الدرداء قاضياً على الشام[١]. وجلس للقضاء في دمشق. وعين عبادة بن العياش[٢] على حمص وقنسرين. وأبو الدرداء هو الصحابي الجليل عويمر مشهور بكنيته وباسمه جميعاً واختلف في اسم أبيه فقيل عامر أو مالك أو ثعلبة أو عبد الله أو زيد وأبوه ابن قيس بن أمية بن عامر بن عدي بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي. أسلم يوم بدر وشهد أحداً وأبلى فيها قال في حقه رسول الله ﷺ يوم أحد: نعم الفارس عويمر وقال: هو حكيم أمتي وقال ابن حبان ولاه معاوية قضاء دمشق في خلافة عمر[٣] وذكر وكيع (عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان أبو الدرداء قاضي الجند في زمن عمر وعثمان ومات قبل عثمان)[٤]. وفي رواية (عن مصعب الزبيري قال حدثني مالك بن أنس عن يحيى ابن سعيد أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان الفارسي: أن هلم إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان أن الأرض المقدسة لا تقدس أحداً وإنما يقدس الإنسان عمله وقد بلغني أنك جعلت طبيباً فإن كنت تبرئ فنعما لك وإن كنت متطبباً فاحذر أن تقتل إنساناً فتدخل النار. فكان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنه نظر إليها وقال: متطبب

(١) التقاضي في التاريخ العربي الإسلامي ، رسالة ماجستير ، عبد الرزاق خطار الساعدي ، ص١٤.

(٢) الصحيح عبادة بن الصامت كما سيأتي ذكره.

(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، ج٣ ص٤٥.

(٤) أخبار القضاة ، محمد بن خلف المعروف بوكيع ، ج٣ ص١٩٩.

والله ارجعا إلي أعيدا علي قضيتكما)[1]. وفي هذا الرواية إشارة إلى دخول بيت المقدس في سلطة أبي الدرداء القضائية، لأنه دعا صاحبه إلى الأرض المقدسة للبركة والعيش في ظل بركة الأرض المباركة. إن تولية أبي الدرداء القضاء في الجند يؤكد الخطة الاستراتيجية للجهاد الإسلامي إذ وضعت خطة متكاملة لتنظيم العلاقات الاجتماعية بين المجاهدين مضبوطة بضوابط الشريعة ويشرف على تنفيذها القضاة الذين كانوا يمارسون القضاء في وسط المجتمع العسكري. وتؤكد هذه الصفة التي وجدت مع عمليات الفتح الإسلامي أن تولية القضاء في العسكر استمر حتى آخر العصر الأموي ففي رسالة من الخليفة مروان بن محمد لبعض من ولاه يقول له فيها: (فليكن من توليه القضاء في عسكرك من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع)[2]. توفي أبو الدرداء قبل استشهاد عثمان رضي الله عنه بسنتين.

٢. **عبادة بن الصامت:** هو الصحابي عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهد بن قيس بن ثعلبة بن غنيم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو الوليد شهد بدراً وقال ابن سعد كان أحد النقباء بالعقبة وشهد المشاهد كلها بعد بدر وقال ابن

(١) انظر: المصدر السابق ، ج٣ ص٢٠٠.

(٢) منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية ، د. عبد الرزاق الأنباري ، ص٣٤.

أنس شهد فتح مصر وكان أمير ربع المدد – يعني المدد إلى الجيش – وفي الصحيحين عن عبادة قال: أنا من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة. وقال عبد الصمد بن سعيد في تاريخ حمص: هو أول من ولي قضاء فلسطين(١) وذكر خليفة أن أبا عبيدة ولاه أمرة حمص ثم صرفه وولى عبد الله بن قرط وروى ابن سعد في ترجمته أنه ممن جمع القرآن في عهد النبي ﷺ وفي رواية أن يزيد بن أبي سفيان كتب إلى عمر: قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذاً وعبادة وأبا الدرداء فأقام عبادة بفلسطين. وقال في حقه معاوية بن أبي سفيان: اقتبسوا من عبادة فإنه أفقه مني. ولعبادة قصص متعددة مع معاوية وإنكاره عليه أشياء وفي بعضها رجوع معاوية له وفي بعضها شكواه إلى عثمان منه تدل على قوته في دين الله وقيامه بالأمر بالمعروف. وروى ابن سعد في ترجمته أنه كان طوالاً جميلاً ومات بالرملة سنة أربع وثلاثين ومنهم من قال: مات ببيت المقدس وجزم الهيثم بن عدي أنه عاش بعد ولاية معاوية الخلافة وقيل: إنه عاش إلى سنة خمس وأربعين(٢). ويذكر ابن عبد البر أن عمر بعث عبادة إلى الشام قاضياً ومعلماً فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين ومات بها ودفن بالبيت المقدس وقبره فيها معروف

(١) انظر ترجمة في الإصابة ،ج٢ ص٢٦٨.

(٢) انظر ترجمة في الإصابة ،ج٢ ص٢٦٨.

إلى اليوم. وقال حمزة عن رجاء بن أبي سلمة: قبر عبادة بن الصامت بالبيت المقدس[١]. وذكر وكيع أن عبادة كان على قضاء الأردن فاختصم إليه رجلان فأهدى له أحدهما قلة عسل فقبلها منه، فلما تقدم ثانية قضى عليه فلما ولى قال: يا فلان ذهبت القلة[٢]. وهذا يدل على عدم محاباته في القضاء وعدم تأثره بما يمكن أن يجعله يحكم بغير الحق.

٣. **فضالة بن عبيد:** هو الصحابي فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن الأصرم بن حججي بن كلفة بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي أبو محمد، أسلم قديماً ولم يشهد بدراً وشهد أحداً فما بعدها وشهد فتح مصر والشام قبلها ثم سكن الشام وولي الغزو[٣]. وولاه معاوية القضاء بعد أبي الدرداء وروى وكيع أن أبا الدرداء حضر إلى معاوية عائداً له فقال له: من ترى لهذا الأمر بعدك قال: فضالة بن عبيد. فولى معاوية فضالة بن عبيد القضاء حتى مات في خلافة معاوية، قال أبو مسهر وهو آخر من مات ممن بايع بيعة الرضوان وكان معاوية يستخلفه على الشام حين مضى إلى صفين[٤]. وهذا يعني أنه جمع بين إمارة بلاد الشام والقضاء وكان مقره في

(١) انظر ترجمته كذلك في الاستيعاب ، لابن عبد البر ت٤٦٣هـ ، هامش الإصابة.

(٢) وكيع ، أخبار القضاة ، ج٣ ص٢١٤.

(٣) انظر ترجمة في الإصابة ،ج٢ ص٢٠٦.

(٤) انظر: وكيع ، أخبار القضاة ، ج٣ ص٢٠٠.

دمشق ويقضي لمدن الشام ومن ضمنها بيت المقدس. قال ابن حبان: مات فضالة في خلافة معاوية وكان معاوية ممن حمل سريره وأرخ المدايني وفاته سنة ثلاث وخمسين وقال: مات بدمشق لأن معاوية كان جعله قاضياً عليها وبنى له بها داراً[١].

٤. **حابس بن سعد بن المنذر بن ربيعة** بن سعد بن يثربي الطائي ذكره ابن سعد وأبو زرعة الدمشقي فيمن نزل الشام من الصحابة وذكره ابن سميع في الطبقة الأولى من الصحابة وقال البخاري: أدرك النبي ﷺ. وذكره ابن أبي حاتم وخليفة وغير واحد وأنه قتل بصفين مع معاوية، وذكر ابن عبد البر أنه كان يعرف من أهل الشام باليماني ونقل بعض أهل العلم الأخبار أن عمر قال له: إني أريد أن أوليك قضاء حمص. فذكر قصة في رؤياه اقتتال الشمس والقمر وأنه كان مع القمر وأن عمر قال له: كنت مع الآية الممحوة لا تلي عملاً[٢]. وذكر الخصاف في شرح أدب القاضي أن عمر ولاه قضاء حمص[٣]. وكما ذكرنا سابقاً بأن قضاة بلاد الشام يقضون لمدن وقرى بلاد الشام والتي تعني سورية وفلسطين ولبنان والأردن حالياً.

(١) انظر ترجمته في الإصابة ، ج٢ ص٢٠٦.

(٢) الإصابة ، ج١ ص٢٧٢.

(٣) منصب قاضي القضاة ، م.س ، يأخذ عن مخطوطة الخصاف ورقة ١١.

٥. **عبد الله بن قرط الأزدي:** قال البخاري وأبو حاتم وابن حبان: له صحبة وروى أحمد بن حنبل بإسناد حسن أنه كان اسمه شيطاناً فغيره النبي ﷺ وقال ابن حبان: إن صالح بن شريح كان كاتباً لعبد الله بن قرط عندما كان عبد الله بن قرط أميراً لأبي عبيدة وذكر أبو عبيدة في الفتوح أنه شهد اليرموك وأرسله يزيد بن أبي سفيان بكتابه إلى أبي بكر واستعمله أبو عبيدة على حمص في عهد عمر وكان على حمص في خلافة معاوية وفي التجريد أن الخطيب سمى أباه قرّةً وليس قرطاً قال ابن يونس: استشهد بأرض الروم سنة ست وخمسين(١). وذكر ابن حجر حادثة عنه قال فيها: إن عبد الله بن قرط الشمالي كان يعس بحمص – أي يدور بالليل في طرقات حمص يتابع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – ذات ليلة وكان عاملاً لعمر فمرت به عروس وهم يوقدون النيران بين يديها فضربهم بدرته حتى تفرقوا عن عروسهم فلما أصبح قعد على منبره فحمد الله وأثنى عليه فقال: لعن الله عروسكم البارحة أوقدوا النيران وتشبهوا بالكفرة والله مطفئ نورهم قال: وعبد الله بن قرط من أصحاب النبي ﷺ(٢).

وبعد هذه القائمة من القضاة والولاة الذين ذكرتهم مصادر تاريخ القضاء والذين كانوا يمارسون الولاية والقضاء في بلاد الشام وبيت

(١) الإصابة ، ج٢ ص٣٥٨.

(٢) الإصابة ، ج٤ ص٣٨.

المقدس. وقد كانوا من الصحابة العلماء والفقهاء الذين اختارهم الخلفاء وقادة الجيش لتعليم الناس أمور الدين والقضاء بينهم في خصوماتهم وأقضيتهم والذين تدل سيرهم وأخبارهم بأنهم كانوا من فقهاء وعلماء الصحابة ولذلك اختارهم الخلفاء لمهمة القضاء في بيت المقدس أو بلاد الشام لأهمية هذه البقعة المباركة في نفوس هؤلاء الخلفاء. ونسأل الله تعالى أن يفك أسر بيت المقدس من أيدي الصهاينة اليهود المجرمين ويشرف جيلنا بالفتح المبين ويختص من يختاره بهذا الشرف العظيم فيدخل بيت المقدس محرراً وفاتحاً يعيد لذاكرة المسلمين عهد الفاروق وصلاح الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة بالمصادر والمراجع

١. الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني.
٢. أحكام الذميين والمستأمنين في بلاد الإسلام ، د. عبد الكريم زيدان ، دار الرسالة ، بيروت.
٣. أدب الفتيا ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق: د. محي هلال السرحان ، منشورات وزارة الأوقاف العراقية ، بغداد.
٤. إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ط١ ، ٢٠٠٣.
٥. أخبار القضاة ، وكيع (محمد بن حيان ت ٣٠٦هـ) / بيروت .
٦. تاريخ الطبري ، محمد بن جرير الطبري ، ت٣١١هـ / بيروت .
٧. تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٠٤هـ) ، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري.
٨. التقاضي في التاريخ العربي الإسلامي ، رسالة ماجستير ، عبد الرزاق خطار الساعدي / معهد التاريخ العربي للدراسات العليا.
٩. سنن أبي داود (سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٢٧٥هـ).
١٠. روضة القضاة وطريق النجاة ، أبو القاسم السمناني (ت ٤٩٩هـ) ، تحقيق: د. صلاح الدين الناهي.
١١. عقد التحكيم في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي ، د. قحطان الدوري ، منشورات وزارة الأوقاف ، بغداد.

١٢. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، د. يوسف القرضاوي.
١٣. الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد ، مصطفى أحمد الزرقاء.
١٤. فقه السيرة ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، بيروت.
١٥. فكرة القانون ، دينيس لويد ، ترجمة سليم الصويص ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت.
١٦. القدس الشامخة عبر التاريخ ، محمد هاشم غوشة ، الكويت.
١٧. مقدمة ابن خلدون ، شرح: د. علي عبد الواحد وافي.
١٨. المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، د. إبراهيم سلمان الكروي مع د. عبد التواب شرف الدين.
١٩. المغني والشرح الكبير على متن المقنع ، موفق الدين ابن قدامة المقوضي (ت ٦٨٢هـ) ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٤.
٢٠. منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية ، د. عبد الرزاق الأنباري ، بيروت.
٢١. نظام القضاء في الإسلام ، د. عبد الكريم زيدان ، بغداد.
٢٢. وقائع فلسطينية ، إصدار اللجنة الأردنية الوطنية للدفاع عن القدس ، عمان.